من تاريخ وآثار قصور مدينة الموصل
- قصر توفيق الفخري نموذجاً -*

أ.د.ذنون يونس الطائي•

مقدمة:

تُعد مدينة الموصل إحدى الحواضر العربية الشهيرة بغنى تراثها المعماري وقدمه، وقد ميزها عن سائر المدن العراقية، والذي جاء نتيجة تراكم الأحداث التاريخية الكبرى التي شهدتها المدينة خلال عصورها الحديثة، ومن الأهمية العمل على دراسة الطرز المعمارية القديمة ومحاولة السعي لمزج التراث والمعاصرة في إيجاد توليفة عمارية بين القديم والحديث، فالعمارة الموصلية القديمة تمثل هوية الموصل التراثية، في حين ان العمارة المعاصرة الحديثة هو عنوان الحداثة المعمارية في مفاهيمه الغربية الوافدة بكل ابهاراتها.

ونرى في ظل عملية الزحف (الكونكريتي) الجاري المتسارع على المدينة القديمة في الجانب الأيمن لنهر دجلة، قد فاقم عملية التدهور وتشويه المنظور البانورامي لموفولوجيا مدينة الموصل القديمة بكل بهاءها المعماري الجميل وقسمات المفردات البنائية الموروثة، كالأواوين، والسراديب والفضاءات الواسعة، والكوشات المطلة على الأزقة.

ولا شك أن التطورات العلمية والتكنولوجية المتلاحقة قد ساهمت بشكل واضح على إزاحة بقايا الموروث المعماري الجميل، ولا بد من التركيز هنا على أن إعادة صياغة تراثنا المعماري بمواد حديثة يعد بمثابة (إجراءاً تلفيقياً أو ترقيعياً لا يحمل أية قيمة للحفاظ على تراثنا الغني) على حد تعبير د. صلاح الجنابي.(١)

وعليه فقد تم دراسة التفاصيل المعمارية لقصر توفيق أفندي الفخري نموذجاً للقصور الموصلية القديمة، في طرازها الأخاذ وفي محاولة للتذكير بأهمية الإبقاء على الجذور الضاربة في أعماق الأرض والتاريخ، وعدم الإستسلام الكلي والركون نحو الحداثة والطرز المعمارية الغربية، وإن كان لا بد من مسايرة التطورات العصرية فلا

---

* هذا البحث مدين لحفيد توفيق أفندي الفخري السيد محمد توفيق نعمان توفيق أفندي الفخري، الذي وفر لي الأوراق الخاصة لعائلته والوثائق الرسمية الخاصة بالقصر، فله مني كل الشكر والامتنان.

• **أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر مدير مركز دراسات الموصل جامعة الموصل**

(١) أنظر الدراسة القيمة للأستاذ الدكتور صلاح حميد الجنابي "الغزو المعماري المعاصر للموروث العمراني في مدينة الموصل "بحث مقدم إلى مؤتمر العمارة في الموصل: الواقع وآفاق المستقبل، الذي عقده مركز دراسات الموصل في ١٠ تشرين الثاني، ٢٠٠١

غروة من المزج بين التراث والمعاصرة في الطرز العمارية للمدن العربية عموماً لنكون أمناء على تراثنا العماري البهي.[٢]

١-نظرة في سيرة توفيق أفندي الفخري

وهو محمد توفيق بن يونس[٣] سعدي بن سليم بك الفخري، ولد في مدينة الموصل سنة ١٨٦٢م، والدته خديجة بنت محمد أفندي البكر، وقد توفي والده سنة ١٨٧٣م وشقيقه الأصغر منه سناً محمد جميل (نائب عن الموصل في مجلس النواب العراقي ١٩٢٨-١٩٣٢) وعضو محكمة استئناف الموصل، ورئيس غرفة الزراعة فيها، والد الوزير فخري جميل الفخري كما له شقيقة (جميلة) والدة عبد المالك الفخري (أحد العاملين في الحقل السياسي العراقي خلال العهد الملكي).[٤]

تزوج سنة ١٨٩٤ من السيدة خديجة مصطفى الدملوجي، وهو بعمر ٣٢سنة، وهذا التأخير في الزواج لم يكن دارجاً في تلك الفترة. حيث آثر تكوين نفسه مادياً كي يكون مؤهلاً لتحمل مسؤولية بناء أسرته. وفي سنة ١٩٠٣حج بيت الله الحرام، حينما كان يسكن في بيت أهله في محلة جامع جمشيد في الدار المرقمة ١/٦٥. وقد نهض توفيق الفخري منذ الصغر بأعباء إعالة أفراد عائلته وإدارة الحصص الشائعة في القرى التي تركها والده بعد وفاته وفيها (٧٧) بستاناً في كربلاء (وسط العراق). ونظراً لشغفه بالعمل الحر فقد تمكن من زيادة أملاك عائلته، فضلاً عن امتلاكه لقطعان كبيرة من الماشية (الأغنام، الماعز، الأبقار، الجاموس، الخيول العربية الأصيلة) إذ كان يتاجر فيها مع بلاد الشام وبشكل خاص تجارة الأغنام وبالذكور منها بعد تسمينها والتي تسمى (بالربط).

ويعد أول من استقدم إلى مدينة الموصل، ماكنة حصاد تجرها الحيوانات سنة ١٩٠٩ من (ادنة) بمبلغ مقداره (٣٠) ليرة ذهبية، وهو أيضاً أول من استقدم ماكنة لطحن الحبوب مع شريكه سعد الله توحله سنة ١٩١٦.[٥]

---

(٢) للإطلاع على خصائص الطرز المعمارية للمنازل في مدينة الموصل، أنظر التحليلات في
The Characteristics of A rchitecture Style of the Traditional Houses in the Mosul City – Anglytical Study Authors :Daizhizhong ….Mozahim mohammed Musyafa…yuan Hong Jourral : American J ournl of Engineering and APPlied Sciences ISSN :19417020 year :2010 Volume : 3 I ssue: 2 pages :380 -38gp rovider :DoAJ Publisher : Science Publications
(المنشورة على المكتبة الافتراضية العلمية العراقية)

(٣) يوسف سعدي الفخري، تولى رئاسة بلدية الموصل سنة واحدة اعتباراً من ١٨٧٨، والجدير بالذكر أن بلدية الموصل تأسست سنة ١٨٦٩، أنظر د.ذنون الطائي، الاتجاهات الإصلاحية في الموصل في أوآخر العصر العثماني وحتى تأسيس الحكم الوطني (الموصل، ٢٠٠٩) ص ص ١٢٨و ٤٠٧.

(٤) من الأوراق الخاصة لعائلة الفخري.

(٥) المصدر نفسه.

٢-التوصيفات العمارية لقصر توفيق الفخري:

شيد القصر على الأرض المرقمة ٤٨، مقاطعة ٣٩ في منطقة حاوي الكنيسة الجنوبية، وتقع في منطقة الربض الأعلى لمدينة الموصل، ثم أعطي للمقاطعة رقماً جديداً من قبل مديرية الطابو في الموصل وهو (٤٨) ومساحة (١١٧٥)م. وقد أنشأ الجزء الأول من القصر سنة ١٩١٣ مستطيل الشكل.[٦] على طراز القلعة الآشورية، القابلة للدفاع عن نفسها عند الهجوم عليها او تعرضها للإغارة من قبل الأعداء أو الطامعين، حيث الجدران العالية التي تزيد عن الستة أمتار، ويحف حولها جدران (الستارة) للسطح ذي (المزاغل) المربعة الشكل بأبعاد ٥٠×٥٠سم، مبنية من الجص والحجر بارتفاع متر ونصف، وغالباً ما يستخدم السطح للنوم ليلاً في فصل الصيف، على عادة أهالي الموصل حيث نسمات نهر دجلة الباردة.

عندما ندلف للقصر عبر بابه الذي يتسع لشخصين، وهو ذو سفاقتين ومصنوع من الخشب، وتعتليه لوحة من الرخام (المرمر) الأزرق، ترتكز على دعامتين (دنك) مستطيلة الشكل، كما ويرتكز ركن القصر الأيسر من الناحية الجنوبية على دعامة من الرخام الأزرق، تمتد حتى السطح ويلف حوله ازار من الرخام أيضاً بارتفاع ١,٢٠م، وكذلك ركنه الأيمن من جهة نهر دجلة أي من ناحية الشرق.[٧]

أقول عندما ندلف إلى القصر عبر بابه ومن خلال رواق (مجاز).[٨] نصل إلى فناء (حوش) مستطيل الشكل في منتصفه حديقة. إذ ينقسم القصر إلى قسمين يفصلهما جدار له باب صغير، والقسم الشرقي منه المطل على نهر دجلة، مخصص لاستقبال الضيوف والوكلاء ومرافقيهم ولأعداد القهوة ومبيت الحيوانات الخاصة بالنقل أو الحراثة أو الأبقار، ويسمى ذلك القسم باللغة التركية (السلاملك) أي استقبال الضيوف في غرفة الضيوف او (المجلس) او (الديوان خانه).

---

(٦) أنظر التفاصيل حول موقع ومساحة الأرض، في سند الطابو المرقم (٣٢) في كانون الثاني ١٩٣١.

(٧) مشاهداتي الميدانية وتجوالي في القصر في ٣نيسان ٢٠١٢.

(٨) في غالبية القصور والمنازل الموصلية القديمة، تم استخدام النمط المعروف (بالمجاز المنكسر)، وبخاصة بيوت الأسر الموسرة، كون ذلك المدخل، يتقدم الفناء الداخلي، ويكون بشكل ممر ما بين الزقاق أو الفناء الخارجي من جهة، والفناء الداخلي من الجهة الأخرى، ذلك عبر فتحتين غير متقابلتين فهما لا تقعان على نفس المحور بل يكون محورهما متعامدين، وبحيث يجبر الشخص الداخل على الانحراف، إما يميناً أو يساراً إلى الفناء الداخلي للدار، وهذه المعالجة فرضتها ظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية، وكذلك الضرورات الدفاعية، أنظر: ممتاز حازم الديوه جي، "وصف وقياس الخصائص المعمارية للبيوت الموصلية القديمة "بحث مقدم إلى ندوة (مورفولوجيا مدينة الموصل التراثية–مقترحات تطويرية) التي عقدها مركز دراسات الموصل في ٢ كانون الأول، ٢٠٠٨.

أما القسم الآخر من القصر، فهو مخصص لأفراد العائلة الذي سمي (الحراملك) أي حريم القصر وهو يضم تفاصيل بنائية وعمارية متعددة، ولا بد من الإشارة إلى أن المادة المستخدمة عموماً للبناء. هي الجص والحجر إذ كان بناء السقوف يتم على الطريقة البنائية الموصلية التي تأخذ شكل القباب والتي تسمى (السقوف المعقودة)، وتختلف شكل العقدة بموجب مساحة الغرفة فعندما تكون مستطيلة تسمى العقدة (مهد) كونها تشبه مهد الطفل، أما إذا كانت الغرفة مربعة الشكل فتكون العقدة على شكل عقجين (العرقجين هو الذي يعتمره الرجل فوق رأسه).

أما الاواوين (جمع إيوان) أو الرواقات (جمع رواق) والإيوان عبارة عن طاق مقوس من الرخام المستطيل يعتليه حلقتين نافرتين من النقش، وارتفاعه بحدود (٥) أمتار وفي القصر اواوين متعددة لاسيما في الجهة اليمنى من باب القصر (الجنوبية).

ومن أهم وظائف الإيوان كما يقول المؤرخ سعيد الديوه جي – في البيوت والقصور الموصلية عموماً– هو جلوس أهل الدار فيه أغلب أيام السنة نهاراً ويزاولون فيه أعمالهم ويتناولون طعامهم وتقام فيه حفلات الزواج وختان الأطفال وفي أيام الربيع والصيف يستقبلون فيه ضيوفهم، وهو أيضاً محل لإنجاز الأعمال البيتية أو المنزلية التي تحتاج إلى التعاون بين أفراد العائلة، مثل تقطيع الرشته (شبيهة بالأسباكتي) وجرش البرغل، وندف القطن وغيرها.[٩]

ولغرف القصر نوافذ أو شبابيك عدة، تطل على فناءه أو على الخارج، لتسمح بدخول أشعة الشمس إلى الغرف، فضلاً عن كونها ممرات للتهوية، وهي مصنوعة من الخشب والزجاج، ويلاحظ أن الشبابيك المطلة على الخارج، يركب في داخل كل شباك مشبك حديدي على شكل مربعات، إذ يدخل الشيش من الأعلى ماراً بالشيش الأفقي، لتشكل مربعات منها، وتكون المسافة بين شيش وآخر بحدود ١٥سم، فمثلاً باب القصر المطل على النهر من الجهة الشرقية، يضم إيوان وغرفة المجلس يتخلل الجهة (٦) شبابيك، (٣) من جهة الشرفة ومثلها في الجهة الجنوبية منه، وتعتليها غرفة في الطابق الثاني تضم (٣) شبابيك بذات المواصفات المذكورة.

ويهتم أصحاب القصور الموصلية عموماً بتزيين الغرف وبخاصة (غرفة المجلس)حيث تزين من الداخل بمشكاوات غائرة في الجدران، تكون على ارتفاع مترين أو أكثر، عن مستوى أرض الغرفة، والمشكاة تكون على شكل محراب مزينة بزخارف دقيقة، وكذلك الزخارف الجبسية على شكل شرائط تحف الغرفة[١٠]

ولغرفة المجلس في القصر بابين الاول ينفذ إلى (الحرملك)، والثاني يوصل إلى إيوان، والأخرى للوكلاء ومرافقي الضيوف، في حين إن الغرفة الثالثة، في ذلك

---

(٩) من الأهمية للإطلاع على تفاصيل البيت الموصلي مراجعة ما كتبه المؤرخ الراحل سعيد الديوه جي " البيت الموصلي " مجلة التراث الشعبي، العدد (٦)١٩٧٥ ص٢٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص٣٤.

الجزء، خصصت لإعداد القهوة (القهوة وجاغي)، وبجوارها غرفة الحيوانات (الاخور) ويتخللها عدة شبابيك مرتفعة لأغراض التهوية، وباب ينفذ إلى الجزء الخاص (بالحرملك) كي تقوم الخادمة بحلب البقر، دون أن تظهر للوكلاء أو الخدم من الرجال.

كما أن لكل غرفة (عتبة) تنخفض عن مستوى الغرفة، بحيث تسمح لدوران الباب، في الفتح والغلق، ويستفاد منها أيضاً، لوضع الأحذية، إذ لا يجوز الدخول بالأحذية أو النعل إلى داخل الغرفة للحفاظ على النظافة، حيث تستخدم لتأدية الصلاة في أوقاتها عند وجود الضيوف. ويكون في مقدمة العتبة (ثقب) ينفذ إلى الإيوان لإخراج ماء الشطف منه في فصل الصيف، والإيوانات تكون عادة مرصوفة بالرخام الأزرق مع الجدران، في حين أن الغرف تبلط بمادة (الجص).

ولدى إطلاعنا على قوائم مصاريف بناء الجزء الأول من القصر وردت أسماء المعمار داود ونعوم وبني، والمروجين، جرجيس وسليمان، والناطور (الحارس) يحيى وسيد محمد وقدوري، والحجارين، خليل بن إبراهيم (لتقديم حلان منجور ومنقول الى محل العمارة ومركب على بعض البناء)، كما ورد اسم يعقوب النقار وخليل الجندرمة، والذي عمل (كور) الجص ويونس شلاوي لتقديم (الصمان) أي الحجر الأحمر غير المهندم، والسقا حيو (يحيى)، الذي جلب الماء لجبل الجص وذنون وسلو اللذين نقلوا الجص إلى محل البناء[١١].

تقرر توسيع المشتملات داخل القصر سنة ١٩٢٨ بمناسبة زواج (نعمان) توفيق الفخري من إبنة عمه الحاج جميل الفخري، فكلفوا المهندس حقي المفتي، بالتخطيط والإشراف على بناء القسم الجديد من القصر.[١٢] وهو على الضلع الشمالي الغربي والمؤلف من سرداب تعلوه غرفتان وبينهما إيوان مرتفع فوق السرداب ويسمى (اليازلغ) وهو عبارة عن طارمة مربعة الشكل يُصعد إليها بستة درجات وتشرف على حوش (فناء) القصر، ورُصت أرضيتها بالرخام الأبيض، وللغرفتان شبابيك ثلاثة لكل منهما تطل على الخارج وقد أبدع المعمار الموصلي في إستخدام النقش والزخرفة النافرة والغائرة، على شكل مثلثات متصلة بعضها مع البعض الآخر، على شكل شريط في أعلى واجهة الغرفة داخل الإيوان. والطارمة والإيوان مسقف بالعقدة يتخلله حديد (الشلمان) وهو الذي جلبته شركة (شل مان) بعد الإحتلال البريطاني للموصل سنة ١٩١٨ أما السرداب فقد بني من الجص والحجر وهو مبطن بالرخام الأزرق بإزار يرتفع ١,٢٠ سم عن الارض يلف حوله وقائم على دعائم رخامية مربعة الشكل، وسقفه معقود بطريقة العقادة، ويرتبط السقف مع الجدران، والدعائم برخام أزرق على

(١١) أنظر لمزيد من المعلومات حول المصروفات والأسعار، وثيقة مصروفات القصر المؤرخة في ٥ تموز سنة ١٣٣٠هـ/ . وفيها تفاصيل عن (المروجين) وهم الذين يناولون الجص والحجر للبناء و(البكّات) وهم ناقلي مواد البناء من الحجارة وغيرها على ظهور الحمير.

(١٢) أفادني بذلك السيد محمد توفيق نعمان الفخري في مقابلة بتاريخ ٢٠١٢/٣/٢.

شكل أقواس من أجل تقويته والمحافظة على ثباته. وله نوافذ تطل على الفناء الداخلي للقصر، وأخرى على جبهة النهر من أجل التهوية ودخول أشعة الشمس.(١٣)

ومن الثابت في مدينة الموصل قلما يخلو بيت من سرداب أو أكثر فإن حر الصيف اللاهب، حملهم على أن يتخذوا السرداب ليقيلوا به وقت الظهيرة، يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) (اقيلوا فان الشياطين لا تقيل) كما ويستخدم السرداب لحفظ بعض المواد الغذائية التي تحتاج إلى مناخ معتدل، منها الحبوب والدهن الحر واللحم المكبوس وغيرها، والذي ساعد على اتخاذ السراديب في الموصل، كما يرى المؤرخ سعيد الديوه جي هو طبيعة الأرض في البلد، فأرضها صلبة بعيدة عن مستوى نهر دجلة، لا تتسرب إليه المياه والرطوبة مهما كان عمق السرداب حتى أن بعضها كانت تتخذ تحت فناء الدار(١٤)

وبجوار الايوان، من الجهة اليسرى هناك إيوان آخر، مع مستوى الفناء، ويضم المطبخ ولوازم الطبخ وإعداد الطعام، حيث الموقد أو (الادفيي) وهو عبارة عن مستطيل مجوف يمتد الى أعلى السطح يوضع فيه الخشب ويوقد لطهي الطعام، ويخرج الدخان عبر التجويف إلى السطح ولذلك غالباً ما يلاحظ أن جدران المطابخ وسقوفها مطلية باللون الأسود من جراء تسرب الدخان.

٣- تأجير القصر:

لقد تعرض القصر للتأجير خلال سنوات متفرقة بالنظر لعدم شغوله من قبل أصحابه ولأسباب تتعلق بالظروف التي مرت بها عائلة توفيق الفخري.

فعندما توفي توفيق الفخري سنة ١٩١٧، ولكون ولده نعمان لم يبلغ من العمر سوى ١٢سنة، ولا يمكنه البقاء وحده في القصر، فقد قرر عمه شقيق والده تأجير القصر.(١٥) إلى إحدى الشركات النمساوية العاملة في الموصل والتي تسمى غروب الاوتوموبيلات براغا، ومما جاء في العقد الموقع بين جميل أفندي وممثل الشركة ((إن غروب الاوتوموبيلات براغا النمساوية، قد إستأجر قصركم الواقع في عين كبريت، اعتباراً من أول نيسان سنة ١٩١٨بقيمة ليرتين ذهب بالشهر، مدفوعة سلفاً في رأس كل أول شهر وعقد الإيجار (ليس ممكن) فسخه إلا برضاء الطرفين.. وقد دفع لكم على طلبكم ستة ليرات ذهب وذلك لطيبة خاطركم، التوقيع قوما ندش يوزباشي)).(١٦) ويبدو أن تلك الشركة تعنى بالأمور العسكرية ولها علاقة بقوات الاحتلال البريطاني التي احتلت مدينة الموصل سنة ١٩١٨.

---

(١٣)مشاهداتي الميدانية للقصر .

(١٤)الديوه جي، المصدر السابق، ص٢٥.

(١٥)رسالة من السيد محمد توفيق الفخري للباحث في ٢٠١٢/٣/٢٧، ص١.

(١٦) وثيقة باللغتين العربية والإنكليزية موقعة من قبل قوماندان يوز باشي، عن الشركة بتاريخ ٩مارس ١٩١٨ موجهة الى شقيق توفيق أفندي، جميل أفندي.

وفي سنة ١٩٣٦ تم تأجير القصر إلى مديرية لواء شرطة الموصل وتبين من خلال العقد الموقع مع السيد نعمان بن توفيق الفخري ومدير شرطة لواء الموصل درويش لطفي بك بالإضافة إلى وظيفته، إن مقدار بدل الإيجار (أربعون ديناراً) ويدفع مقدماً، ومدة الإيجار سنة كاملة، إيجاراً من ١٩٣٦/١٢/٢٥ لغاية ١٩٣٧/١٢/٢٤. وإن الغاية من إيجار القصر هو لاستخدامه كمدرسة لشرطة الموصل.(١٧) ومما جاء في عقد الإيجار الموقع بين الطرفين. "إنني نعمان بن الحاج توفيق أفندي الفخري، صاحب الدار الواقعة في رأس حاوي الكنيسة، بجوار المستشفى الملكي الجديد، شمال مدينة الموصل، قد أجرت داري المذكور إلى مدير شرطة لواء الموصل، ليتخذها مدرسة للشرطة بمبلغ إيجار سنوي مقداره (أربعون ديناراً) على أن يدفع لي بدل إيجار سلفاً وأن أقوم بتصليح جميع النوافذ والأبواب التي تحتاج إلى التعميرات والترميمات داخلاً وخارجاً وصبغ الأبواب والنوافذ مع إجراء التعميرات في جميع مشتملات الدار وما ستحتاجه من التعميرات النجارية، والبنائية مستقبلاً وإن أعمال التأسيسات الكهربائية فيها عليّ، وأن لا يزيد عدد المصابيح على الأربعين مصباح، وإذا وصل أنبوب الماء من قبل دائرة الماء إلى داري، فإني مسؤول على أعمال التأسيسات اللازمة لإيصال الماء إليها فإذا خالفت شرطاً من هذه الشروط، فللشرطة الحق بإجراء ذلك من قبلها، وأنا ملزوم بدفع جميع المصاريف مباشرة من قبلي وليس لي أي حق للاعتراض، وإذا انتهت مدة الإيجار وقدرها سنة كاملة، فللشرطة الحق بالاحتفاظ بالدار وتجديد عقد الإيجار للمدة التي تراها لزوماً وليس لي الحق بالمطالبة بزيادة بدل الإيجار المدرج بهذا العقد وقدره (أربعون ديناراً) سنوياً".(١٨)

ويبدو لنا من خلال ما جاء في عقد الإيجار إن مديرية الشرطة فرضت شروطها مقابل إيجار القصر وأبرزها: إجراء الترميمات الكهربائية اللازمة وإيصال ماء الإسالة في حالة قيام البلدية بذلك ويتحمل المصاريف المؤجر، كما يلحظ عدم ذكر أية تصليحات و ترميمات فيما يتعلق بحالة القصر العمرانية، مما يدلل على أنه كان بهيئة وحالة جيدة عند إبرام عقد الإيجار.

وفي سنة ١٩٣٩ أستؤجر القصر من قبل دائرة الصحة في الموصل، وخصص للحُمّيات أو كما كانت تسمى (مستشفى العزل) واستمر الإيجار لمدة ستة سنوات، حيث عادة مديرية الشرطة سنة ١٩٥٠ واستأجرته ليكون مركزاً (لشرطة القوة السيارة) حيث خصصت الغرف العليا الجديدة لآمر المركز ومعاونه، في حين خصص

(١٧)وثيقة المؤجر والمستأجر تضم تفاصيل الإيجار بدون تاريخ.

(١٨)وثيقة، بعنوان" الشرائط الخصوصية " موقعة بين المستأجر (مدير شرطة لواء الموصل) والمؤجر نعمان توفيق أفندي الفخري.

السرداب لمبيت أفراد الشرطة، وبقوا فيه حتى سنة ١٩٥٤. إذ عاد نعمان توفيق الفخري سنة ١٩٥٥وسكن فيه مع أفراد عائلته.(١٩)

٤-قصر توفيق الفخري منتداً ثقافياً:

يعد الحاج توفيق الفخري، أحد وجوه مدينة الموصل، وعليه فقد غدا قصره نادياً علمياً وثقافياً واجتماعياً، لوجوه الموصل وعلمائها واكاديميها وأدبائها، وبخاصة بعد أن سكنه إبنه (جنيد) سنة ١٩٦٧ وحتى الوقت الحاضر، ويضم مساء كل يوم تقريباً نخب متنوعة الاختصاص من مدينة الموصل، أساتذة جامعة وفنانين وأدباء وصحفيين، وتتم المطارحات والمناقشات الأدبية والثقافية والعلمية، فضلاً عن السماع لوصلات موسيقية على العود والرق لهواة الفن الأصيل، وقد حضر كاتب هذه الدراسة أ.د. ذنون الطائي إحدى تلك الأماسي، وتشهد عادة تلك الجلسات نقاشات حارة وحادة أحياناً وأخرى يشوبها المزاح والمفاكهة، وكانت الحوارات تتناول جانباً من تاريخ مدينة الموصل أو العراق في فتراته المختلفة، أو موضوعات أدبية عن آخر الإصدارات العلمية الأدبية أو الشعرية كما ان المساجلات الشعرية كانت دوماً حاضرة فيه.

ولا غروة أن تتمخض فيه بعض المشاريع الأدبية أو الكتابة في جوانب من التاريخ المحلي لمدينة الموصل، أو إنماء مشروع ثقافي أو فني ولا أنسى أن أشير إلى أن الضيافة العربية وإكرام الضيف ووفادته من التقاليد اليومية الحاضرة، حيث فناجين القهوة الحارة العامرة، فضلاً عن وجبات العشاء ولاسيما في المناسبات الشخصية لرواد القصر إذ أن مائدة الطعام ممدودة في أشد الأوضاع القاسية التي شهدتها مدينة الموصل زمن الحصار الاقتصادي المعروف في تسعينيات القرن العشرين.(٢٠)

وربما أشير هنا إلى أن القصر كان يعد بمثابة مشفى لبعض المرضى ممن أعياهم المرض وعجز شفاءهم، فكانوا يطلبون السكن فيه للترويح عن النفس أو كما يقال في اللهجة الموصلية (لتبديل الهوى) وفعلاً هناك أناس بعينهم رجالاً أم نساء قد سكنوا فيه لمدد متفاوتة من الأيام.

٥-القصر المسحور حقيقة أم خيال:

لقد ذُكرت روايات عدة تناولها الناس وزوار القصر، حول وجود (الجان) فيه، وإنه يظهر في الليل وفي أماكن مختلفة من القصر، ومنها ما ذكره (نوري فيض الله النقيب) احد وجهاء مدينة الموصل حول مرض والدته الذي اعيى الأطباء عن شفاءه، فنصحها أحدهم بضرورة ايجاد مكاناً (لتبديل الهوى)، وعليه فقد اتصل نوري النقيب بأصحاب قصر توفيق الفخري شارحاً لهم الأمر، فرحبوا بوالدته وخادمتهم للسكن في القصر من أجل الاستشفاء وتبديل الهوى، فالقصر مطل على نهر دجلة وتداعبه نسمات الهواء ليلاً ونهاراً، حيث وضعوا أسرتهم بجوار حديقة القصر. ولما كان منتصف الليل

(١٩)رسالة السيد محمد توفيق نعمان الفخري، ص٢.
(٢٠) المصدر نفسه، ص٥.

يقول النقيب، أنه سمع صوت قدوم شخص من (الاخور) وصوت أقدامه غير اعتيادية، وفتح الباب الخارجي للاخور، ثم فتح الباب الداخلي المؤدي إلى الفناء فإذا به شخص يلبس البياض، وقام بالدوران حول سرير المريضة ثم غادر سالكاً نفس الطريق، وبعد مغادرته تكلم النقيب مع الخادمة وسألها إن رأت شيئاً فترد هي تسأله هل رأيت شيئاً أفندي؟!.

ولما حل الصباح وكانت والدته المريضة، قد مضى على وجودها أياماً دون أن تتناول الطعام، واذا بها تنهض وتطالبهم بإعداد الطعام لها، وتناولته بعد أن جهزوه وقد عاشت بعد ذلك ما يزيد عن العشرين سنة.

وهناك حادثة أخرى يتحدث بها شخص اسمه (محسن) كان يعمل فراشاً في مديرية معارف لواء الموصل سابقاً. ويذكر بأنه كان جالساً في الموضع الذي شيد عليه فندق الموصل الحالي (يبعد بحدود ٥٠٠م عن القصر) وقد شاهد ثلاثة خيالة يمتطون خيولهم وصعدوا من منطقة حاوي الكنيسة قرب مقالع الرمل والحصى المطلة على ضفاف نهر دجلة، متجهين صوب القصر بأقصى سرعة وبين مصدق نفسه ومكذبها، شاهد الخيالة يدخلون القصر من اتجاه السرداب وهو يعرف أن لا منفذ للقصر من هناك ولم يظهروا من الاتجاه الثاني.

ومما يذكر أيضاً ما حدث سنة ١٩٩١ لأبناء الفنان التشكيلي راكان دبدوب (بلال وبنان) ولانقطاع التيار الكهربائي عن كل دور الموصل، أتى هو وولديه إلى القصر، من أجل مواصلة دراستهم وإجراء الفروض الدراسية، حيث كان التيار الكهربائي لا ينقطع عنه، بسبب تغذيته من التيار الكهربائي الخاص بالمستشفى العام بجواره ولما حان وقت النوم، واستلقوا على الأسرة في غرفة (جنيد) فإذا بهم يستيقظون في منتصف الليل على أصوات أوراقهم (تتصفح) دون أن يروا أحداً يفعل ذلك، فقاموا بتغطية رؤوسهم وهم يشعرون بالفزع والهلع حتى أن أنبلج الصبح فيغادروا القصر وهم لا يلوون على شيء سوى الوصول إلى بيتهم وهم بأشد حالات الارتباك والخوف.(٢١)

فماذا يمكننا الاستنتاج مما سبق ذكره من حوادث ومشاهد في منتصف الليل لأناس مختلفي الأعمار والمستويات الثقافية والتعليمية، هل أن القصر مسكون أو مسحور؟! هناك من يصدق ذلك وآخرين يقولون بأنها مجرد أوهام وتخيلات، غير أن الثابت أن جنيد نعمان الفخري لا يزال ساكناً فيه حتى اليوم وأن المجالس الثقافية وأوقات السمر وعزف الموسيقى مستمرة بالانعقاد، وأن ضيوف القصر من الشرائح المتعددة تتوافد عليه يومياً وهم أصدقاء العائلة ويبقون حتى ساعات متأخرة من الليل.

(٢١) المصدر نفسه، ص٦.

٦-القصر في صور متلاحقة:

أ-منذ تشييد القصر في مطلع القرن العشرين، كان أهالي الموصل يتمحلقون حول الأراضي المحيطة بالقصر، وبخاصة في فصل الربيع حيث الخضرة الدائمة وتفتح الورود والرياحين و(الشقيق الأحمر) فيأتون سيراً على الأقدام شيباً وشباباً وصبية ونساء، وتضرب الخيام في منظر خلاب في أيام الجمع منذ الصباح وبعد صلاة الجمعة، تتجمهر العوائل حول مائدة الغداء تضم ما لذ وطاب من الأكلات الموصلية الشهيرة، كالكبة الكبيرة والدولمة والمشويات. والأطفال تلعب أنواع الألعاب الشعبية، والرجال يتبادلون أطراف الحديث والكل يتمتع بجمال الطبيعة الخلابة والساحرة في تلك البقعة المطلة على نهر دجلة الخالد.

ب-في إطار تجسيد التلاحم الوطني والتعامل الإنساني وأهمية وفادة الضيف فقد استضاف نعمان الفخري سنة ١٩٦١ حوالي ١٤ عائلة كردية من أتباع الشيخ جلال وشقيقة صديق البريفكاني، بعد نزوحهم من قراهم في المناطق الشمالية للعراق، على أثر قيام الحركة الكردية، والمصادمات التي حدثت مع السلطات حينذاك، ومكثوا في القصر ما يزيد عن الثلاث سنوات. وكل مشتملات القصر كانت تحت تصرفهم.

جـ-في سنة ١٩٧٣ جرى تصوير مشاهد (من فيلم التعويذة) الامريكي في إحدى الغرف المطلة على نهر دجلة بوصفه نموذجاً للبيت الموصلي الشرقي في عمارته وشارك الممثل العراقي إبراهيم جلال فيه.

الخاتمة والتوصيات:

تكتنز مدينة الموصل بالعديد من القصور ذات الصبغة التراثية وجمال وروعة تفاصيلها المعمارية، ومنها قصر توفيق أفندي الفخري إنموذجاً، فضلاً عن قصور عوائل: الجليلي والتوتونجي والطالب وغيرها، وإن الحفاظ عليها ومعالجة التهرؤ الحاصل فيها وإعادة تأهيلها يندرج في الحفاظ على الآثار والموروث العماري في مدينة الموصل، وهذا يقودنا إلى ذكر عدد من التوصيات المهمة بهذا الشأن وكما يأتي:-

١-من الأهمية الحفاظ على المتبقي من القصور والدور السكنية ذات الطرز العمارية القديمة، بتفاصيلها البنائية وموادها الحجر والجص والمرمر(الفغش). من خلال تشكيل لجان علمية لتوثيق تلك الأماكن ووضع الدراسات اللازمة عنها من أجل صيانتها وإعادة تأهيلها، ومعالجة التهرؤ وبخاصة قصر توفيق الفخري لأهميته التراثية ولضرورة إسعافه وتدارك الأمر قبيل انهياره بالكامل.

٢-لا غرابة من تحويل بعض القصور إلى متاحف أو نوادي ومراكز ثقافية وسياحية والاستفادة من فضاءاتها لتكون معرضاً للوحات الفنون التشكيلية أو لتقديم العروض المسرحية والمهرجانات الفنية، وينطبق ذلك تماماً على قصر توفيق أفندي الفخري لما يتسم به من سعة الاروقة وبخاصة وجود (اليازلغ) بمثابة مسرح وكذلك وجود الفناء الواسع والحديقة لاستقبال الجمهور.

٣-ومن أجل إبراز جمالية تلك القصور نرى من الأهمية العمل على إيجاد فضاءات مشجرة حول الأثر المعماري، ليكون فيصلاً بينه وبين الأبنية الحديثة وهذا ما يؤدي إلى العزل البصري بين الفروق المعمارية للطرازين، فضلاً عن المحافظة عليه بيئياً.

ملاحق الصور

منظر عام لقصر توفيق افندي الفخري

مدخل القصر من الجهة الغربية

شكل المزاغل التي تحف سطح القصر

جزء من القصرالمطل على نهر دجلة

منظرعام للقصر من الجهة الشمالية

ايوان ملاصق لسرداب القصر

اليازلغ من الجهة الشمالية

الجزء الجنوبي من القصر

جانب من سرداب القصر

مقطع من نقوشات غرفة المجلس

في هذه الغرفة صورت لقطات من فلم التعويدة الامريكي

اعمدة القصر من الجهة الشمالية

جزء من سقف احدى الغرف مثبت بالشلمان

بقايا احد الاعمدة من المرمر